النظريات التربوية المعاصرة: (1) – المحاضرة 9 –

هناك عدد من الانشغالات ذات الطابع السياسي و الاقتصادي و إيكولوجي تميز العصر الحاضر عن سابقيه و تفسر أهم الاتجاهات التربوية المعاصرة. أهم مظاهر العصر الحديث التي أفرزت مثل هذه الانشغالات هي البطالة، المخدرات، الغليان الاجتماعي، العنف، التمييز العنصري المتصاعد، تلوث البيئة، الأصولية الدينية و الوطنية الطائفية.

مشكل التربية الأساسي، في خضم هذه المظاهر، وفق بعض المنظرين، هو مشكل تحقيق المساواة بين فئات المجتمع المختلفة في الاستفادة من خدمات التربية و التكوين بدل أن يكون مشكل تحقيق "الجودة" في عملية إيصال المعلومة و تعليمها للغير. و نحن نرى أن مفهوم الجودة في التربية و التعليم لا يتعارض مع مبدأ تحقيق المساواة في الميدان التربوي بين فئات المجتمع المختلفة، إذا كانت التربية تستجيب لمطالب الأفراد و الجماعات وفق استعداداتهم، خلفياتهم الادراكية، حاجياتهم و اتجاهاتهم المختلفة.

مفهوم المساواة في الخضوع لتربوية شمولية مفروضة على الجميع يأخذ نبرة مختلفة عن مفهوم المساواة في الاستجابة لمطالب الأفراد و الجماعات بتنوعها، سواء كانت ثقافية، دينية، اجتماعية مهنية أو سايكولوجية. الجودة في غسل الأدمغة ليست نفسها الجودة في الاستجابة لمقتضيات التربية يتحقق من خلالها تحرير الفرد و المجتمع من شتى التبعيات.

فما هي إذن النظرية التربوية "الجيدة" على ضوء مشاكل عصرنا السالفة الذكر و ما هي أحدث هذا النظريات و أكثرها شيوعا؟

وضعنا عبارة "الجودة" بين مزدوجين لتنبيه القارئ أن الجودة منسوبة لمن يراها كذلك، و أن العبارة تشير لحكم قيمي، و أن ميدان القيم هو بالأساس مبحث فلسفي يستوجب استدلالا بمنطلقات ذات الطابع السوسيولوجي أو السايكولوجي، أو الميتافيزيقي الديني أو غيرها من المنطلقات التي تبين و تبرر موقف المنظر بخصوص طبيعة الانسان و طبيعة المجتمع المثالي و مواصفات المعرفة الضرورية لتحقيق تلك المثالية لدى الفرد أو المجتمع أو

كلاهما معا. فهناك مثلا من يعتقد أن المثالية، و الجودة، تكمن في العزوف عن التبعية للمجتمع الاستهلاكي، و التحرر من قيوده المادية (التيار الروحاني)، عند البعض الآخر الجودة في التعليم تكون عندما تتحق الاستجابة لمطلب الحراك الاجتماعي للأفراد و تتناغم المدرسة مع سوق العمل...إلخ.

فما هي مواصفات أهم هذه النظريات و ما هي القواسم المشتركة بينها لتشكل في مجموعها تيارا يتميز عن تيارات أخرى تظم في طياتها نظريات مختلفة تتقاسم قواسم مشتركة مختلفة؟ لقد حاولنا إبراز القواسم المشتركة المختلفة التي تتكتل حولها أهم النظريات التربوية في إطار نموذجين الواحد يبرز أبعاد الانسان المختلفة و الآخر يبرز أبعاد العملية التربوية

وحسب بيرتراند كما جاء في (Houssay, Bertrand, 1991, P114, 116) يمكن تقسيم النظريات التربوية ضمن مجموعة مجالات والتيارات بالمذاهب الفلسفية القائمة، والتي يمكن إيجازها في ما يلي:

النظريات الروحانية Théories Spirituelles:

في نهاية القرن العشرين رجعت النظريات الروحية على يد كل من فيرجسون Ferguson وماسلو Maslow وكريشنامورتي Krisnamurti وغيرهم، والتي تهدف إلى الارتقاء بالذات وتجاوزها، والانفصال عن كل ذاتية، والعلاقة مع ما هو إلاهي رباني وصوفي، من خلال تجارب التواجد في وحدة مع الكون؛ حيث تضيع أنا في الكون وتختبر الوعي الكوني. ويتضمن مثل هذا التعليم المتسامي كل من الاستماع، والقبول، والحدس، والحب، والعطاء الذاتي، والتآزر الروحي؛ حيث يترجم إلى فرح، أو لذة ونشوة كبيرة للتعلم.

يجتمع علم النفس الإنساني والصوفيون المسيحيون ومن يمارسون الزين Zen معًا هنا لتحديد وتعريف بيداغوجيا جديدة والتي يكون محورها التلميذ والتي يبحث فيها هذا الأخير عن تطوره الشخصي من خلال الالتقاء مع الأشخاص ذوي الخبرة المطلوبة، وأيضا قصد الوصول أو التحول إلى الحكمة.

ومن المفاهيم التربوية في هذا المجال، حسب ابرهام ماسلو Maslow أن التربية تتمثل في تسهيل معرفة الذات ضمن انتمائها بالوجود الكوني، بينما الهدف من التربية عند هارمان Harman هو البحث عن المطلق مرتكزا على تقنية تغييرية للشخص تسهل عملية البحث تلك، وتضمن تنمية العديد من صيغ المعرفة. وهكذا بالنسبة لفرجيسون Fergusson وليونارد Leonard وغيرهما...

النظريات الشخصانية Théories Personnalstes:

ظهرت هذه النظريات منذ سنوات الستينات ومن أبرز روادها كارل روجرز Rogers، وجوردن Gordon، وباري Paré وغيرهم.

التي تحاول تشجيع في المربي اخراج امكاناته الداخلية والاستقلالية في النشاط، بحيث يصبح قادرًا على تولي مسؤولية تكوينه وتنمية شخصيته. لكن بالنسبة لـ Y. Bertrand، وقعت التسعينيات على شهادة وفاة هذا التيار. لأنه وقع ضحية تناقضاته الخاصة، بمعنى أنه لا يسعه إلا إعطاء المتعلم مبادئ التنظيم الذاتي، بدلا من تنظيم بيئة تعليمية له، وهذا الأخير ينبغي أن يكون المنظم الأساسي. لدرجة أن يكون التعليم دون تعليم، وعليه قام مؤيدوا هذا التيار بتغيير نظريتهم التعليمية، وتحوّل بعضهم إلى التيارات الروحانية، والبعض الآخر نحى نحو التعليم التعاوني.

ويبقى أن الفكرة التي تبنتها المدارس ذات الاتجاه الشخصاني في التربية تعرف ب"المدارس البديلة" هي اتخاذ الفرد كمحور للعملية التربوية، وأين يتوقع منها أن يكون الطفل سعيدا جدا فيها.

النظريات النفس معرفية Théories Psychocognitives:

بينما تتلاشى النظريات الشخصانية وتندثر، تغزو النظريات النفسية المعرفية المجال التعليمي؛ حيث تكون لعملية التعلم وخصائص المتعلم اليد العليا. ومن روادها نذكر بعض الأسماء (جيوردان Giordan، دي لا جاراندري de la Garanderie، إلخ) ومن المبادرين نجد (بياجيه Piaget، باشيلارد Bachelard). من ناحية أخرى ، نشعر أن بيرتراند Y.

Bertrand ليس بعيدًا عن التفكير في أن هذه النظريات مهيمنة للغاية، حتى لو لم يتم تأسيسها على حقيقة علمية بحتة. فحسب بيرتراند "إن فكرة العائق المعرفي (الابستمولوجيا) كانت ستصبح عقبة ابيستمولوجية أمام فهم التعليم وعلى فهمها الخاص".

بالنسبة ل "جون بياجي" Piaget فإن مجالات التفاعل التي يبني فيها الشخص المعرفة وينميها تكون ضمن سيرورة عمليات أكثر شمولية من إعادة التنظيم الذاتي والتكيف مع البيئة، وذلك حسب مراحل نمو الطفل المعرفي. وبالنسبة ل "باشلارد" Bachelard فإن الشخص يبني المعرقة من خلال الامتحان ونقد معرفته الحالية وتجاربه، وهو ما يعرف بفلسفة المعرفة العلمية.

النظريات التكنولوجية Théories Technologiques:

في ترتيب أولاويات المراجع، تتنافس النظريات النفسية المعرفية النجاح مع النظريات التكنولوجية. وهذه الأخيرة ينبغي فهمها بمعناها الواسع والشامل؛ فهي تبين جميع وسائل الدعم للعملية التعليمية، والناتجة عن التطبيق المنهجي للمعرفة العلمية بهدف حل المشكلات العملية. ويدور فحوى الاتجاه الأول حول منهجية التعليم (هندسة التكوين، والأهداف التعليمية ، وتصميم التدريس، وما إلى ذلك) ويهدف إلى وصف شمولية البنيات التعليمية، وتخطيط جميع العمليات. ومن أبرز أصحاب هذه النماذج والمناهج نجد غانيي Gagné ولابوانت Lapointe و غيرهما... حيث يوجد أكثر من مائة نموذج نظامي. ويعتمد الاتجاه الثاني ويرتكز على السيبرنتيكا، والذكاء الاصطناعي، والعلوم المعرفية، وعلوم الكمبيوتر والوسائط المختلفة . ومن أبرز الرواد نجد سلومون Solomon وبيرجرون Bergeron وغيرهما. وفي هذا الخصوص فإن بيرتراند Y. Bertrand تصر بشكل خاص على تيار أصلي؛ وهو الحد الأدنى من التدريب أو التكوين الأدنى لأصحابه كرول Carroll، ورينيي Régnier، وغيرهما، والذي من الممكن أن يصبح قريبًا معيارًا أو مرجعا جديدًا.

ويشير أخيرًا إلى أن النظريات التكنولوجية تدل على فقدان المعلم للسيطرة على الفعل التربوي لصالح الخبراء والمتخصصين، وأنها على هذا النحو، تثير رد فعل من عدم الثقة وتكوين مواقف واتجاهات التجنب والتشتيت.